لمسوا بشكل محسوس المساوىء الاقتصادية التي رافقت عملية الاستيطان نفسها . فعملية شراء الاراضي غالبا ما كان يتم على اثرها طرد الفلاحين العاملين على تلك الاراضي . ومن هنا كانت ردود فعلتهم عنيفة . ولم يكن في الامكان ان تخفف مشاعر العداء تلك المنافع التي يدعي الصهيونيون انهم حملوها معهم . ولا شك ان كبار الملاك كانوا يدركون ما تحمله عملية شراء الاراضي من أخطار بعيدة ، تبغي اقتلاعهم من الارض ، ولكن هذا لم يكن مانعا من ان يتم بيع اراض على أيديهم ، خاصة وان معظمهم يقيم في المدن وفي خارج فلسطين غالبا .

أغلب من وعى الخطر هم المثقفون الذين تابعوا نمو الحركة الصهيونية ، وعرفوا أهدافها البعيدة ومخططاتها الى جانب ما لمسوه من أعمالها مباشرة ، فباتوا يخشون على الوجود العربي نفسه في فلسطين . ولا شك أن عدد المثقفين في المدن كان قليلا ، ولكن لو عرفنا ان قيادة الرأي العام في ذلك الوقت كانت من بين المثقفين من أهل المدن ، تبين لنا مدى التأثير الذي مارسه هؤلاء . ولكن وان كان الاطلاع على الحركة الصهيونية قد اقتصر على فئة المثقفين الا أنه لا يمكن انكار أهمية الرأي العام ، ودليل ذلك ان قاعات المحاكم في حيفا ويافا التي حاكمت مرارا أصحاب الصحف المعارضة للصهيونية كانت تغص بجمهور الحاضرين وكانت تعقب كل تبرئة شبه مظاهرة وطنية .

أمر آخر كان يدل على أهمية الرأي العام هو أن الصهيونيين أنفسهم لم يستهينوا به ومن هنا كانت محاولتهم المستمرة للتقليل من أهمية العداء العربي للصهيونية فعزوه أحيانا الى جهل لغة وعادات وطبائع العرب وأحيانا الى عداء المسيحيين المتأثر بفكرة المعاداة للسامية — برأيهم — أو الناتج عن التنافس الاقتصادي والثقافي(٢) . ولكن العداء كان يقلقهم وبذلوا جهودا لابطال مفعوله : تجلى في عدد الكتاب الذين جندوهم للدفاع عن الصهيونية والتأكيد على منافعها المادية ، أو في شراء عدد من الصحف العربية أو في مساعيهم المتواصلة لدى الدولة العثمانية كي تتخذ من الصهيونية سلاحا مضادا لفكرة القومية العربية . وكان آخر محاولاتهم مساعيهم الدبلوماسية في أوساط بعض الزعماء العرب في فلسطين من أجل التقارب بحجة المنفعة المتبادلة وتقارب الشعبين والعمل معا لاحياء الشرق ، وما يمكن ان تقدمه الصهيونية من منافع مادية للبلاد العربية كلها . وأثبتت هذه المحاولات عن فشلها في التوصل الى اتفاق مع حركة تهدد الوجود العربي في المنطقة .

لعبت الصحافة العربية التي واكبت ثورة ١٩٠٨ دورا هاما في تنبيه الاذهان نحو الخطر الصهيوني . اذ مع الحرية الممنوحة للصحافة بدأت الصحف اليومية والاسبوعية بالظهور في الاجزاء العثمانية من البلاد العربية . وفي حين شغل موضوع الصهيونية عددا معينا من الصحف خارج فلسطين ، كانت المسألة الصهيونية الشاغل الاول للصحافة الفلسطينية(٣) . ولم تعمل فقط على التنبيه للخطر الصهيوني وطرق مواجهته بل الى نقل القضية الى خارج حدود فلسطين . وقد لعب المسيحيون دورا هاما في الصحافة المحلية في فلسطين بسبب الفرص التعليمية المتوفرة لديهم ، ولكن دور المسلمين لم يكن أقل من ذلك ، بل ان الشعور بالخطر الصهيوني كان من جملة العوامل التي قربت بين الفئتين(٤) .

وتبرز بين الصحف الفلسطينية جريدة (الكرمل)(٥) لصاحبها نجيب نصار التي حملت لواء المعارضة دون توقف خلال الفترة السابقة للحرب (١٩٠٩ — ١٩١٤) وشغلت هي وصاحبها اهتمام الدوائر الصهيونية لانها كانت أول من كشفت أسرار الصهيونية ونبهت الى أخطارها ببعد نظر واستباق للاحداث نادرين . ولم تكن فلسطين في تلك الفترة وحدة ادارية ، بل كانت أجزاؤها الشمالية تتبع ولاية بيروت بينما شكلت القدس وما حولها متصرفية مستقلة تتبع الآستانة ، الا أن (الكرمل) لم تكن جريدة محلية ، بل كانت